السُّنَّة

وَمكانتها في التشريع الإسلامي

تأليف

الدكتور عبد الحليم محمود

١٩٧٧

منشورات

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت



من مراجع الكتـــاب

١ ــ صحيح البخاري

٢ ــ صحيح مسلم

٣ ــ سيرة ابن هشـــام

٤ ــ رياض الصالحـــين

ــ الانوار المحمدية ــ للنبهاني

٦ ــ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي : للمرحوم الاستاذ مصطفى السباعي .

٧ ــ السنة قبل التدوين ــ للاستاذ عجاج نويهض

٨ ــ الرسالة للامام الشافعي

٩ ــ رجال الفكر والدعوة لابي الحسن الندوي

١٠ ــ الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي

١١ ــ الحديث والمحدثون للشيخ محمد ابو زهو .



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

يقول الله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله •

ويقول سبحانه : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا •

ويقول : فلا ، وربك،لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما •

وفي حديث صحيح يقول المقدام بن معدي كرب : « حرم النبي صلى الله عليه وسلم أشياء يوم خيبر ، منها الحمار الاهلي وغيره،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك ان يقعد الرجل منكم على اريكته ، يحدث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه • وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله » •

وبعد :

فيحب القراء عادة ان يعرفوا شيئا عن ظروف تأليف الكتب التي يقرءونها ، لأن ذلك يضعهم في جو يمهد لهم

تقدير الكتاب في صورة أعمق : حيث عرفوا الظروف والملابسات ، ولأن ذلك يقربهم من جو الكاتب النفسي ، ويدخلهم ، نوعا ما ، في محيطه الخاص ، فتكون بينهم وبينه ــ على البعد ــ بعض اسباب الالفة . ومن اجل توضيح ذلك أكتب هذه المقدمة :

ان السنة : دعوة بالحسنى الى الرقي الاخلاقي الذي تجري وراءه الانسانية المهذبة ، انها دعوة الى التاجر ان يكون صادقا ، فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء ،

والى العامل ان يتقن عمله ، لأن الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه .

والى الصانع ان يؤدي العمل كما يجب ، حيث اخذ الاجر ، ومن أخذ الاجر حاسبه الله على العمل .

وهي دعوة الى الاب ، باعتباره ابا ، والى الام في وضعها كأم ، والى الاخ في مهمته كأخ ، والى غيرهم من افراد المجتمع : أن يرعى كل منهم ما وكل اليه من امر رعيته وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

وهي دعوة للناس الى الامانة ، حيث أنه لا ايمان لمن لا امانة له .

والى الصدق ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا .

والى الرحمة : الرحمة العامة الشاملة ، وصلوات الله وسلامه على من قال :

« انما انا رحمة مهداة » .

ومن قال : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » .

وخذ أي خلق كريم تتمنى ان يسير عليه المجتمع : فستجد في السنة دعوة اليه ، بوسيلة او بأخرى ، وبثالثة .

وهي في هذه الدعوة تنبه دائما الى دور الامة الاسلامية في الاخلاق العالمية : أن دورها : انما هو دور الرائدة الراعية وعلى الرائد دائما ان يكون المثل الاعلى . والاسوة الكريمة ، والقدوة الصالحة .

ولقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : الصورة الحية الناطقة التي طبقت كمبادىء انسانية ممكنة ـ الخلق الذي رسمه الله وأحبه للانسانية جمعاء ، والذي عبرت عنه السنة اجمل تعبير وأبلغه .

ومن اجل هذا التقدير الكريم للسنة الشريفة كان العلماء المستنيرون في كل عصر : يجاهدون من اجلها ، ومن اجل مكارم الاخلاق التي تعبر عنها ، وكان هؤلاء العلماء ـ علماء السنة ـ يعرفون بسيماهم : فقد كانوا من الزهد في حطام الدنيا : بحيث لا ينازعون الناس في دنياهم :

لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين ، وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم ، وكانوا مشغولين عن السلطان بمن بيده السلطان يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء: مالك الملك ذي الجلال والاكرام .

وكانوا صادقين ، لقد كان الصدق دينهم وفطرتهم .

وكانوا صابرين على الحياة ، وصابرين على العمل : لقد اقاموا نهارهم ، وأسهروا ليلهم عملا على مرضاة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

والمثل الذي نحب ان نسوقه ـ كصورة لهؤلاء القوم ـ هو : الامام احمد بن حنبل ، رضي الله عنه ، انه المحدث الذي حاول ان يكون صورة صادقة لما كان عليه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في الزاوية الاخلاقية .

وسيرة الامام ، رضوان الله عليه : مثل اعلى في التمسك بما يراه حقا ، وفي الصبر على ما يناله في سبيل التمسك بالحق .

على ان كل من تشبع بالسنة حقا : انما هو صورة ، قريبة بقدر المستطاع ، من الامام احمد .

ولقد كان الامام البخاري وغيره ممن أشربت نفوسهم حب السنة : امثلة كريمة للخلق الكريم .

والامثلة الكريمة للخلق الكريم هدف دائما لسهام النماذج الاثيمة التي استهواها الشيطان في قليل او في كثير: انه النزاع الدائم بين الفضيلة واصحابها ، وبين الممثلين لنزعات الهوى والضلال .

ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الاخلاق في كل عصر لفقدت الانسانية الثقة بنفسها ، ولما اطمأن انسان لانسان ، ولما وثق شخص بآخر .

لقد ربت السنة رجالا ، وخصائصها التي ربت بها الرجال موجودة فيها ، لأنها من طبيعتها ومن ذاتها • ولقد شاهدت الانسانية واعترفت بسمو هؤلاء الرجال ، وأولتهم ثقتها وتقديرها •

ان الامام احمد بن حنبل ، وان الامام البخاري ، وان امير المؤمنين في الحديث : الامام سفيان الثوري ، وأمثال هؤلاء ، رضي الله عنهم : منارات يهتدى بهم عشاق المثل العليا الاخلاقية •

لا بد اذن من العمل على نشر السنة واذاعتها ، ومحاولة الاكثار من النفوس التي تتشربها وتحققها وتتمثلها وتحياها •

لا بد من نشرها وطنية •

ولا بد من نشرها انسانية ، لأنها تعبر عن ارقى مستوى انساني •

ولا بد من نشرها دينا •

ولا بد من نشرها ذوقا ادبيا •

ولا بد من نشرها للثروة اللغوية ••

وما من شك في ان للسنة جوا فكريا : فالرسول ، صلى الله عليه وسلم : يتحدث عن اصلاح المجتمع ، وعن عوامل الهدم ، التي تعمل على تقويضه ، وعن عوامل البناء التي تعمل على اقامته على قواعد سليمة ، ويتحدث عن

النظم التي ينبغي ان تسود المجتمع الانساني، وعن الاوضاع التي يجب ان تستقيم .

وللسنة جو لغوي : فالرسول ، صلى الله عليه وسلم قد اوتي جوامع الكلم ، وكلامه ، صلى الله عليه وسلم ابلغ الكلام البشري ، ونشر السنة عامل من اهم العوامل على ترقية اللغة التي يكتب بها الكتاب،وعلى وضع الناشئين والمثقفين في وضع ادبي ممتاز ، من حيث اللغة ، ومن حيث الاسلوب .

وللسنة جو روحي : انها تهذيب للنفس ، وتربية للروح وسمو بالاخلاق الى درجة لا تجارى ، وصلى الله وسلم على من قال :

« انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

ورحم الله شوقي اذ يقول :

انما الامم الاخلاق ما بقيت   فانهموا ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ومن اجل ذلك كله كان نشر السنة واجبا دينيا ، وعملا اجتماعيا كريما ، وواجبا وطنيا حتميا ، واصلاحا اخلاقيا ساميا .

وهو على كل حال ضرورة وطنية ملحة في عصر تحاول الرذيلة فيه ان تعمم الانحلال الخلقي في كل اسرة وفي كل بيت،ويحاول الفساد ان يأتي على مقدسات الامة ومقوماتها من عرض وشرف وكرامة .

لقد احب الله للانسانية مثالا اخلاقيا كريما رسمه سبحانه في القرآن الكريم قولا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الالهي ، وكان بذلك الانسان الكامل .

لقد كان المثل الاعلى في الرحمة ، والمثل الاعلى في الكفاح والمثل الاعلى في الصبر المجاهد المتفائل ، والمثل الاعلى في الصدق ، في الاخلاص ، في الوفاء ، في البر ، في الكرم .

ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

ولا ريب في ان الامة الاسلامية حينما تقتدي بالرسول صلى الله عليه وسلم : انما تقتدي بأعظم البشر رجولة وانسانية .

وتقتدي بمن احب الله سبحانه ان تقتدي به .

« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » .

وان العمل على نشر السنة انما هو توجيه للاقتداء بالرسول ، صلى الله عليه وسلم .

والله ارجو ان يجعله عام النفع .

وان يهدي به .

وان يجعله ذخيرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .



الفصل الاول

الرسول ﷺ وسنته الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

«ربنا آتنا من لدنك رحمة،وهيء لنا من امرنا رشدا»
« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب » .

خاتم الانبياء :

يقول الله تعالى لرسوله الكريم،صلى الله عليه وسلم:
« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله، فموسى عليه السلام أرسل لبني اسرائيل خاصة، لقد اقتصرت دعوته على بني اسرائيل ، لدرجة انه حينما ذهب هو وهارون ، عليهما السلام ، الى فرعون ، قالا له : « انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بني اسرائيل » .

فموسى ذهب الى فرعون ليرسل معه بني اسرائيل .
ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب ، أو الامم في سبيل دعوته .

وعيسى ، عليه السلام ، انما ارسل الى .. « خراف بني اسرائيل الضالة » ، على حد تعبيرهم القديم ، ولم

يحاول سيدنا عيسى ان يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم يحاول ان يجاهد من اجلها .

اما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فانه ارسل الى الناس جميعا ، انه ارسل الى الناس جميعا من حيث المكان ، وارسل اليهم جميعا من حيث الزمان، فهو الرسول الدائم زمانا ومكانا .

« قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا » .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذي أنزله على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ضمانا لهذا العموم في الزمان وفي المكان ، وتحقيقا له .

« انا نحن انزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ومن اجل هذا الوعد بحفظ الوحي كاملا غير منقوص، صحيحا غير مزيف ، كانت الحكمة الالهية في ان الانسانية لا تحتاج الى رسول بعد الرسول ، ولا الى نبي بعد النبي ، انه صلوات الله وسلامه عليه : خاتم الرسل، وخاتم الانبياء.

ولقد امتزج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، برسالته الخالدة ، فكان هو هي شرحا وتفصيلا .

وكانت هي هو بيانا لمعدنه وجوهره ، وخلافة له ، ونيابة عنه .

تقول السيدة عائشة ، رضي الله عنها : **« لقد كان خلقه القرآن»** وهذه الكلمة من السيدة عائشة، **رضوان الله عليها** تحتاج الى تحديد وبيان . **ذلك ان القرآن يحدد**

الخلق الكريم في حده الادنى ، ثم لا يقتصر على ذلك ، وانما يرسم القمم من مكارم الاخلاق ، ويوجه الى السنام منها ، ويقود الى المشارف العليا من درجات المقربين .

فهل تريد السيدة عائشة ، رضوان الله عليها ، حينما تصفه ، صلى الله عليه وسلم ، بأن خلقه القرآن : هل تريد الخلق الكريم في حده الادنى ، أم تريده في حده الاوسط ، أم تريده في حده الاسمى ؟

ان القرآن يحدد الدرجة التي وصل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم من الخلق القرآني فيقول سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «وانك لعلى خلق عظيم»

هذه الآيه القرآنية الكريمة تحدد درجة الاخلاق القرآنية التي وصل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أنها ذروتها وسنامها .

أول المسلمين

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه :

« انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

انه صلى الله عليه وسلم،بعث ليتمم المكارم الاخلاقية ليتممها بذاته ، بسلوكه ، وليتممها بقوله : برسالته .

انه لم يبعث لينشر الاخلاق الكريمة فحسب ، وانما بعث ليتمم مكارمها .

ومكارم الاخلاق لم تكن ــ قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ــ قد تمت . ان اول المسلمين لم يكن قد

وجد بعد، وكانت بذلك مكارم الاخلاق ناقصة،كان ينقصها اكمل صفة لمكارم الاخلاق وهي اسلام الوجه لله اسلاما تاما • ان الكائنات لم تكن قد وصلت ــ لا في نبي مرسل، ولا في ملك مقرب ــ الى الذروة من اسلام الوجه لله ،

والذروة من اسلام الوجه لله ، او اول المسلمين ــ والتعبيران سواء ــ انما هو الذروة من مكارم الاخلاق •

انه الكائن الرباني : انه اول المسلمين ، اولهم باطلاق، اولهم بالنسبة للملائكة ، واولهم بالنسبة لبني آدم ، اولهم قديما ، واولهم الى الابد •• ان اول المسلمين لم يكن قد وجد بعد •

وكانت الانسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة •

كان الكون ناقصا مادة ومعنى ، كان ينقصه أن تتعطر ارضه بأزكى الاجساد ، وان يتعطر جوه بأزكى الارواح ، وكان لا بد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين، ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته دينا عاما خالدا للانسانية جمعاء : هو اسلام الوجه لله •

وينزل القرآن محددا اسلام الوجه لله وسائل ، ومحددا اسلام الوجه لله غايات ، محددا اسلام الوجه لله طرقا واساليب ، ومحددا له بواعث واهدافا • ومن هنا كان من يبتغي غير الاسلام دينا لا يقبل منه • يقول الله تعالى :

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » .

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع اسلام الوجه لله ؟

ان اسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الاخلاق ، وهو جوهر التدين ، انه الدين القويم ، انه الدين الخالد . والنص الوحيد ، النص الألهي الفريد في العالم كله الذي يبين كيفية اسلام الوجه لله ، انما هو القرآن.واذا ما وصل الانسان الى اسلام الوجه لله كان بذلك في ذروة الانسانية. وفي الذروة من مكارم الاخلاق .

ويتفاوت الناس في اسلام وجوههم لله ، ولا بد من ان يكون احدهم اول المسلمين ، فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اولهم باطلاق مطلق .

« قل ان صلاتي ونسكي ، ومحياي ، ومماتي ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين » .

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصا آخر غير الرسول ، صلى الله وعليه وسلم .

ومكارم الاخلاق لا يحدها ــ من حيث التبشير بها ــ مكان ولا يحدها زمان ، بل ولا يحدها عالم من عوالم الله في الارض او السماء ، ومن اجل ذلك كانت رسالته ، صلوات الله عليه وسلامه ، رحمة للعالمين .

من مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه :

ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم ـ لأنه يمثل الاخلاق القرآنية في ذروتها وسنامها ـ جعل الله ، سبحانه وتعالى ، له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو ، صلوات الله وسلامه عليه ـ لأنه تمثل القرآن وحققه ، واصبح قرآنا ـ أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق بعمله ، فلا ينطق عن الهوى ، ولا يعمل بالهوى •

يقول الله ، تبارك وتعالى له ، معبرا عن هذه الحقيقة اروع تعبير :

« وانك لتهدي الى صراط مستقيم ، صراط الله •• »

ويقول تعالى لرسوله ، صلى الله عليه وسلم :

« قل : انني هداني ربي الى صراط مستقيم ، دينا قيما •• »

بل ان طريق الدعوة نفسه، كان، صلوات الله وسلامه عليه ، يسير فيه معصوما ، وكل من يسير في الدعوة على نسقه ، انما يسير معصوما بعصمة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، التي منحها الله تعالى اياه :

« قل : هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني » •

ودعوته اذن وطريق دعوته : يسير فيهما على هدى ،

وعلى نور من ربه ، ولذلك فان : « من يطع الرسول ، فقد اطاع الله » .

فيقول سبحانه :

ويعمم الله ، سبحانه ، الحكم تعميما ، ويطلقه اطلاقا ، فيقول سبحانه :

«وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهو»

ويقول تعالى : « وان تطيعوه تهتدوا » .

«قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ..»

ان حب العبد لله لا يفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة هي : اتبــاع رسول الله ، صلى الله وسلم .

ولقد قال الله ، سبحانه وتعالى : في حديث قدسي ، رواه الامام البخاري: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وان سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه » .

وهذه النوافل التي ذكرت في الحديث الشريف، والتي اذا أكثر الانسان منها ، بعد أداء الفرائض ، أحبه الله : انما هي سلوك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، انها طريق رسمه ، صلوات الله عليه وسلامه بقوله وبعمله . انهــا

سننه ، صلوات الله وسلامه عليه ، التي سنهـا ، لينـال الانسان بها محبة الله ، سبحانه •

(من مكانةرسول الله صلىالله عليه وسلم عند ربهايضاً :)

وأحب الله ، سبحانه ، رسوله ، صلى الله عليه وسلم وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانه ، حبيب اللـه وبلغ الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعبوديته التامة درجه اول المسلمين ، كما سبق ان ذكرنا •

ولما كان اول المسلمين ، وكان حبيب الله ، ونبيـه ، ورسوله : ميزه الله ، سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم، وهذا التمييز لا يخرجه، صلوات الله عليه وسلامه عن البشرية : فهو بشر وهو خير البشر : ومنتهى القول فيه انه بشر ـ وانه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر : يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » •

ان الانسان الذي خصه الله بالوحـي ، واجتبـاه لرسالته ، واصطفاه ليكون ـ باسمه ، سبحانه ـ بشـيرا ونذيرا ، ان هذا الانسان الذي فضله الله علـى العالمين : يجب ان نعرف له مكانته وننزله في الشرف الذي أنزله الله فيه• ان هذا السراج المنير، ان هذا الرءوف الرحيم : ينبغي ألا يدعى كما يدعى زيد وعمرو : « بمعنى لا تنادوه باسمه:

فتقولوا : يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا ابا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم،والتكريم،والتوقير بأنتقولوا: يا رسول الله ، يا نبي الله ، يا امام المرسلين ، يا رسول رب العالمين ، يا خاتم النبيين وغير ذلك ..

واستفيد من هذه الآية — كما يقول الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين — انه لا يجوز نداء النبي بغير ما يفيد التعظيم ، لا في حياته ، ولا بعد وفاته ، فبهذا يعلم ان من استخف بجنابه ، صلى الله عليه وسلم : فهو كافر ملعون في الدنيا والآخرة » إ هـ.

ويقول الله سبحانه في أوائل سورة الحجرات : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » أي لا تتقدموا بأمر من الامور ، قولا كان او فعلا ، الا اذا أذن الله ورسوله ، وكل امر : قولا كان او فعلا : أتاه الانسان بدون اذن الله ورسوله : فانه لا يقع على السنن المستقيم .

يقول الضحاك عن ذلك : هو عام في القتال وشرائع الدين ، أي لا تقطعوا امرا دون الله ورسوله « واتقوا الله ان الله سميع عليم » .

« يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

واحذروا ان فعلتم ذلك : « أن تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون » .

« ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله ، اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة واجر عظيم »

اما هؤلا الذين أساءوا الادب دون ان يقصدوا فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الاعراب الاجلاف ، فان عقولهم ــ في الاغلب الاعم ــ ناقصة : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » .

على ان مجرد الرغبة في الحديث ، الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يحتاج تنفيذها الى تقديم صدقة ، يقول الله تعالى في سورة المجادلة .

« يا ايها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم ، وأطهر ، فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم » .

وتدل الآية الكريمة على ان ترك تقديم الصدقة اثم ، لأن من لم يجد الصدقة فان موقف الله سبحانه منه ــ لعدم قدرته ــ المغفرة والرحمة ، ولا تكون المغفرة والرحمة الا على اثم أتاه الانسان .

وعدم توفر الاستطاعة سبب في مغفرة الله سبحانه : « أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » .

واذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، واذا قادكم الضعف الانساني الى ألا تنفذوا ذلك، ثم ندمتم واستغفرتم

فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم ، وصفاء سريرتكم ، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الاكمل ، وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله في الصغير والكبير ، وما من ريب في ان الله ، سبحانه : خبير بكل ما تعملون .

يقول تعالى : « أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، فاذ لم تفعلوا ، وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة،واطيعوا الله ورسوله،والله خبير بما تعملون»

وبعد : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ويقول الله تعالى :

« يا ايها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .

هذا جانب من مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم التي احبها الله له ، والتي نبه عليها سبحانه في كتابه العزيز.

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله نريد ان نبينه : وهو ان الله ، سبحانه وتعالى ، قد فرض طاعة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، مقرونة بطاعته . بل لقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وحدها ، باعتبارها فرضا .

ويقول الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا

قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينا » .

ويقول تعالى : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا للـه وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » .

ويقول سبحانه : « قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول ، فان تولوا ، فان الله لا يحب الكافرين » .

وفي هذه الآية الكريمة اشارة الى ان الاعراض عـن طاعة الله او عن طاعة الرسول : كفر . وما من شك في انه كفر ، ذلك ان الايمان من اركانه : الايمان برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتولي عنه : استخفافا ، او جحودا وانكارا ، او عنادا ومماراة . ذلك كله : كفر يخرج به المعرض عن دائرة الاسلام .

يقول الله تعالى في طاعة الرســول ، صلوات اللـه وسلامه عليه ، حينما يفرده بالحديث :

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»

ويقول تعالى : فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة ، او يصيبهم عذا باليم » .

ويجعل سبحانه وتعالى ، طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعته فيقول سبحانه :

« ومن يطع الرسول فقد اطاع الله » .

ويجعل بيعته صلوات الله وسلامه عليه بيعة لله ، فيقول سبحانه :

« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما » •

وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هي فيما افترضه الله ، سبحانه او سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله وسلامه عليه او سنه •

وقد تابع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، القرآن الكريم في بيانه لمنزلة السنة • ووجوب اتباعه ، صلى الله عليه وسلم ، فيما سنه ، فلقد حث فيما رواه ابو داود والترمذي عن زيد بن ثابت : «نضر الله وجه امرىء سمع مقالتي فحفظها ووعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » •

وروى في معناه من طريق آخر :

« رحم الله امرءا سمع مقالتي فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة ان يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه ابو بكر :

« ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » •

ان يبلغ الشاهد الغائب » •

ولقد روى الحاكم والبيهقي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله ، وسنتي » .

ويقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع :

« ان الشيطان قد يئس ان يعبد بأرضكم ، ولكن رضي ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم فاحذروا ، اني تركت فيكم ما ان اعتصمتم به لن تضلوا ابدا : كتاب الله وسنتي » .

ويبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخاري عن ابي هريرة ان المسلمين سيدخلون الجنة الا من لا يرغب منهم في ذلك .

يقول صلى الله عليه وسلم : « كل امتي يدخل الجنة الا من أبى » قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : « من اطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد ابى » .

مكانة السنة من القرآن

وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لها مكانتها بالنسبة الى القرآن ولها مكانتها بالنسبة الى التشريع .

انها المصدر الثاني ـ بعد القرآن ـ للاسلام ، انها المصدر الثاني للاسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثاني

للاسلام باعنباره تشريعا ، والمصدر الثاني للاسلام باعتباره اخـــلاقا .

اما منزلتها بالنسبة الى القرآن فانها ، حسبما يقــول الامام الشافعي : « وسنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مع كتاب الله وجهان :

احدهما : نص كتاب فاتبعه رسول الله كما انزل الله.

والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما اراده بالجملة ، واوضح كيف فرضها عاما ، او خــاصا ، وكيف اراد ان يأتي به العباد . وكلاهما اتبع فيه كتــاب اللــه .

وفي كلمة اخرى يبين الامام الشافعي الوجهين فيقول : « أحدهما ما انزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول اللــه مثل ما نص الكتاب . والآخر: مما انزل الله فيه جملة كتاب، فبين رسول الله معنى ما اراد » وهذان الوجهان لم يختلف فيهما احد من الفقهاء ولا من المحدثين، يقول الامام الشافعي « وهذان الوجهان اللذان لم يختلف فيهما » .

والوجه الاول بينه بنفسه .

انه من الواضح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبين القرآن عقيدة ، وشريعة واخلاقا على وجوه شتى، وعلى انحاء مختلفة ، وعلــى اساليب تختلف في الايجــاز والاسهاب ، بحسب حالة المخاطب ، يقول الله تعالى :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يبين للناس مانزل اليهم بسلوكه ، وبقوله ، وباقراراته ، يقول ، صلوات الله عليه وسلامه : « ما تركت شيئا مما امركم الله به الا وقد امرتكم به ، ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه » .

ولكن بيان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان يشتمل ايضا على بيان ما اجمل في كتاب الله ، وهذا الوجه كثير في السنة .

يقول الامام الشافعي ، رضي الله عنه ، قال تبارك وتعالى :

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

وقال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وقال : « وأتموا الحج ، والعمرة لله » .

ثم بين على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ، ومواقيتها ، وسننها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها ، وكيف عمل الحج والعمرة ، وحيث يزول هذا ويثبت ، وتختلف سننه وتتفق ، ولهذا اشباه كثيرة في القرآن والسنة » إ هـ.

وقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كان يبين اوقاتها ، واركانها ، وعدد ركعاتها ، وافتتاحها وترتيب حركتها بعد الافتتاح ويقول صلى الله عليه وسلم : «صلوا كما رأيتموني اصلي»

ويبين رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مناسك الحج : اركانه ، وواجباته ، وسنته . ويقول : « خذوا عني مناسككم » .

وفرض الله ، سبحانه وتعالى ، الزكاة ولم يبين مقادير لها ، لم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والاموال التي تجب فيها الزكاة فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله وطبقه .

ولقد بينت السنة ان القاتل لا يرث ، وان الوصية لا تكون في اكثر من الثلث ، وان الدين يقدم على الوصية، هذا وكثير غيره مما بينته السنة .

عن عمران بن حصين ، رضي الله عنه : انه قال لرجل يريد ان يقتصر على القرآن دون السنة : أنك امرؤ احمق ، أتجد في كتاب الله الظهر اربعا لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا . ثم قال : أتجد ذلك في كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله ابهم هذا ، قال والسنة تفسر ذلك .

ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا الا بالقرآن .

فقال : والله ما نبغي بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

ويقول الامام الشافعي رضي الله عنه : « ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل ، لما افترض الله من طاعته » .

مكانة السنة من التشريع :

ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يشرع — عن الله تعالى — فيما لا نص فيه من كتاب الله .

روى الامام احمد ، وابو داود ، والترمذي وغيرهم: ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعث معاذ بن جبل ، رضي الله عنه الى اليمن فقال له :

« كيف تقضي اذا عرض لك قضاء ؟ »

قال : أقضي بكتاب الله .

قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ »

قال : فبسنة رسول الله .

قال : « فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ »

قال : اجتهد رأيي ولا آلو .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » .

وسيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه في رسالته في القضاء الى أبي موسى الاشعري ، رضي الله عنه والتي بدأها بقوله : « سلام عليك ، اما بعد فا نالقضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة » .

يقول سيدنا عمر في هذه الرسالة : « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة » .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدرا من مصادر التشريع.

ولقد سئل سيدنا ابو بكر ، رضي الله عنه ، عن ميراث الجدة فقال : « ما لك في كتاب الله من شيء ولكن أسأل الناس » ، فسألهم ، فقام المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن مسلمة ، فشهدا : ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، اعطاها السدس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه يعلم سنة الاستئذان حتى اخبره بها ابو موسى رضي الله عنه (١) .

ولم يكن يعلم ان المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب اليه الضحاك بن سفيان ، امير رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على بعض البوادي يخبره ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها » .

ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى اخبره عبدالرحمن بن عوف : ان رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال : سنوا بهم سنة اهل الكتاب » .

ولما قدم « سرغ » وبلغه ان الطاعون بالشام ، استشار المهاجرين الاولين الذين معه ، ثم الانصار ، ثم مسلمةالفتح فشار كل عليه بما رأى ، ولم يخبره احد بسنة ، حتى قدم

---

(١) فبين له ان الاستئذان ثلاث ، فاذا لم يؤذن له انصرف .

عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في الطاعون وانه قال : « اذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

وهذا عثمان ، رضي الله عنه ، لم يكن عنده علم بأن المتوفي عنها زوجها تعتد في بيت زوجها ، حتى حدثته الفريعة بنت مالك ، اخت ابي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها ، وان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لها :

« امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب اجله » فأخذ به عثمان .

ولقد روى الحاكم ما يلي :

« حرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اشياء يوم خيبر منها الحمار الاهلي ، وغيره » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك ان يقعد الرجل منكم على اريكته ، فيحدث بحديثي ، فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وان ما حرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

ويقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابو داود عن عبيد الله بن ابي رافع عن ابيه : « لا ألفين احدكم متكئا على اريكته يأتيه الامر من امري ، مما امرت

به ، او نهيت عنه فيقول : لا ادري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعنـاه » .

روى ابو داود والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « ألا اني اوتيت القرآن ومثله معه ، الا يوشك رجـل شبعان على اريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

وعن حسان بن عطية انه قال : « كان جبريل ، عليه السلام ، ينزل على رسول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه اياها كما يعلمـه القرآن » .

وعن مكحول قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « آتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه » أخرجهما ابو داود في مراسيله .

وقيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا الا بالقرآن ــ فقال،والله ما نبغي بالقرآن بدلا،ولكن نريد من هو اعلم منا بالقرآن .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « لعن الله الواشمات ، والمستوشمات،والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله»،فبلغ ذلك امرأة من بني اسد،فقالت :

يا أبا عبدالرحمن بلغني أنك لعنت كيت،وكيت فقال «ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله » ، فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته ، فقال لئن كنت قرأته فقد وجدته • أما قرأت : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ؟ قالت : بلى ، قال : فانه قد نهى عنه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم •

وبعد ان يذكر الأمام الشافعي الوجوه الثلاثة :

١ ــ بيان السنة للكتاب على ما في الكتاب •

٢ ــ بيان السنة لمجمل الكتاب •

٣ ــ ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب •

يقول : وذلك ما نريد ان ننتهي اليه ، وهو بين في وضوح من كل ما ذكرنا ــ وأي هذا كان ، فقد بين الله انه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف امر عرفه من امر رسول الله ، وان قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة اليه في دينهم ، واقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول‌الله معاني ماأراد الله بفرائضه في كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا : ان سنته صلى الله عليه وسلم ، اذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما اراد من مفروضة فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر : ــ فهي كذلك اين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال •

الفصل الثاني

تدوين السنة

بدأ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في العهد المكي يبشر بالقرآن الكريم ، ورسالة التوحيدسرا ثم جهرا ، وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يلقي بالأضواء كلها على القرآن :

١ ـ ذلك أن القرآن كلام الله، سبحانه وتعالى، وهو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالافئدة ، وهو بعظاته يملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول .

٢ ـ ثم ان موضوع القرآن في هذه الفترة كان موضوعا محددا : لقد كان جملة من القضايا تتصل بالغيب، الغيب الالهي ، او ـ بتعبير آخر ـ توضح العقيدة .

توحيدا ، ورسالة ، وبعثا .

وكان اسلوب القرآن في ذلك واضحا لا لبس فيه ، مبينا بيانا سافرا .

٣ ـ وخشي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ان يضيف بعض الناس شيئا من كلامه الى القرآن ويخلطوه به ، وربما اسرفوا في هذه الاضافة : فلا يستبين الناس الفواصل والفروق بين الاسلوب القرآني الالهي، والاسلوب

النبوي ، حينما يتلونهما ، في اول العهد بالاسلام ، ممتزجين لاتمييز بينهما •

ان معالم الاسلوب القرآني واضحة ، وكلام الله ، سبحانه اينما كان يتميز بصفات تجعله يسمو بمعزل من غيره

ولكن لا بد من ايجاد الفرصة الكافية لترتسم هـذه المعالم في النفوس:أي لا بد من تقديم القرآن خالصا صافيا لا يمتزج به غيره •

لا بد ن تقديمه كما انزل في ثوبه الالي البحت حتى تصبح المعالم معالم الاعجاز المعجز ، بينة سافرة •

من اجل ذلك نهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، عن كتابة حديثه ، صلوات الله وسلامه عليه •

٤ ــ على ان هذه الآيات القرآنية ، في العهد المكي ، وهي تشرح التوحيد : توحيد الله في الذات ، وتوحيد الله في الصفات ، انها وهي تشرح الهيمنة الالهية على الكون ، على العوالم : جميع العوالم ، ليست : في حاجة الى بيان أوضح او الى تعبير اقوى •

بل انه لا يتأتى ان يكون هناك بيان اوضح او تعبير اقوى •

انها وهي تهدم الشرك ، وتدك حصونه ، فتقول مثلا: « قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءألله خير أما يشركون ؟ أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كـان لكم ان

تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » :

أمن جعل الارض قرارا ، وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون .

أمن يجيب المضطر اذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الارض ، أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون .

أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والارض ، أإله مع الله ؟!

قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

انها ، حينما تقول ذلك ، لا تحتاج الى شرح او تفسير

وهي ، حينما تتحدث عن البعث فتقول : « ونفخ في الصور ، فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه اخرى ، فاذا هم قيام ينظرون ، واشرقت الارض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون » .

ليست بحاجة الى شرح او تفسير .

وهي : حينما تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزول القرآن عليه فتقول :

« نزل به الروح الامـين ، على قلبك لتكون مـن المنذرين ، بلسان عربي مبين » ليست بحاجة الى شرح او تفسير .

ثم هي ، حينما تقول ترغيبا وتبشيرا :

« ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » .

هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون .

لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون .

سلام قولا من رب رحيم » .

ليست بحاجة الى شرح او تفسير .

وحينما تقول موعظة وانذار :

« ويوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون » .

حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهـم وجلودهم بما كانوا يعملون .

وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنـا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون

ومـا كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكـم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم : ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون .

وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتـم من الخاسرين ، فان يصبروا فالنار مثوى لهم، وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » ليست بحاجة الى شرح او تفسير .

٥ ــ ثم ان الموضوعات التي تتحدث فيها هذه الآيات

المكية : موضوعات غيبية ، والموضوعات الغيبية دقيقة وغاية في الدقة ، فهل اذا تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم • في هذه الموضوعات ، ونقل عنه هؤلاء شفهيا ــ وهم حديثو عهد بالاسلام وقريبو عهد بالجاهلية الوثنية ••• هل سيحسنون التعبير عنها او سيقولونها كما تحدث بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، في دقته الدقيقة ، وفهمه الواعي عن الله ، سبحانه وتعالى ؟

من اجل كل ذلك ، امر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ألا يكتب عنه غير القرآن •

وحكمة هذا الامر وتعليله : واضح كل الوضوح مما ذكرنا •

ولكن في فترة العهد المدني تغير الوضع :

ها هو ذا الاسلام ينتشر انتشارا واسعا وسريعا : وها هي ذي الامة الاسلامية الناشئة المؤمنة القوية : تبعث الامل واسعا في ان دين الله سينتشر في الآفاق ، وسيعم نوره الاقطار ، وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون ، وسيعم لألاؤه رغم انوف الكافرين •

ومن اجل هذه الامة بدأ الوحي ينزل ارسالا ، أرسالا بالتشريع في جميع الوانه : تشريع دولي ، وتشريع جنائي ، وتشريع مدني ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية •

لقد بدأ التشريع الالهي ينظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع امته ، وحياته مع الله تعالى .

لقد أخذ ينظم حياة الانسان منذ ان يستيقظ في الصباح الى ان ينتهي به الامر الى الصحو من جديد في صباح تال .

وينظم حياته من اسبوع الى اسبوع ، ومن شهر الى شهر ، ومن عام الى عام .

وينظم حياته في ذاته ، وينظم حياته في اسرته ، وينظم حياته في مجتمعه .

وينظم حياة المجتمع الاسلامي كله في الكون كله .

وما كان يتأتى ان يتعرض الوحي في ذلك للتفصيلات المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية التي لا تحد ولا تحصى ، ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه ان يكون تاما في الامور التي تكون عادة مثار النزاع ، وخصوصا الماليات :كالميراث وكتابة الدين مثلا .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة ، في موضوعات اخرى وكان لا بد من ان يستفيض الرسول صلى الله عليه وسلم في البيان والشرح والتفسير .

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الاسلامي ، وألفوا الاسلوب القرآني ، عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الاسلام

والجاهلية ، وبين توجيه الوجه للذي فطر السموات والارض وتوجيهه للاصنام او الشهوات او اللهو ، ولم يكن هناك من خوف على خلط اسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لا بد من تقييد شروح الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتفسيراته . لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث ، وكانت هناك ظروف توجب كتابته .

ومن اجل ذلك اباح الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كتابته بعد ان كان قد نهى عنها .

وبدأ الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يكتبون .

روى الامام البخاري ، في كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال :

« حدثنا محمد بن سلام ، قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف عن الشعبي ، عن ابي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟

قال : لا ، الا كتاب الله ، او فهم أعطيه رجل مسلم ، او ما في هذه الصحيفة .

قلت : فما في هذه الصحيفة ؟

قال : العقل ، وفكاك الاسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

ويروي الامام البخاري :

حدثنا ابو نعيم : الفضل بن دكين ، قال : حدثنا شيبان عن يحيى عن ابي سلمة ، عن ابي هريرة :

ان خزاعة قتلوا رجلا من بني ليث ، عام فتح مكة

بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فركب راحلته ، فخطب فقال :

« ان الله حبس عن مكة القتل ، او الغيل : شك ابو عبد الله ، وسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ألا وانها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لاحد بعدي ، ألا وانها حلت لي ساعة من نهار ألا وانها ساعتي هذه حرام ، لا يختلي شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين : اما ان يعقل واما ان يقاد اهل القتيل .

فجاء رجل من اهل اليمن ، فقال : أكتب لي يا رسول الله .

فقال أكتبوا لأبي فلان .

فقال رجل من قريش : الا الاذخر ، يا رسول الله ، فانا نجعله في بيوتنا وقبورنا .

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : الا الاذخر ، الا الاذخر .

قال ابو عبد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبي عبد الله : أي شيء كتب له ؟

قال : كتب له هذه الخطبة .

ويقول البخاري :

حدثنا علي بن عبد الله ، قال حدثنا سفيان ، قال ، حدثنا عمرو ، قال اخبرني وهب بن منبه ، عن اخيه قال :

سمعت ابا هريرة يقول : ما من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أحد اكثر حديثا عنه مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا اكتب . تابعه معمر ، عن همام ، عن ابي هريرة » انتهى عن البخاري .

ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد نوقش في ذلك من بعض القرشيين: يقول رضي الله عنه ـ حسبما يروى في سنن الدارمي وغيره كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر ، يتكلم في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ باصبعه الى فيه ، وقال : اكتب . فوالذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق .

وروي عن ابي هريرة ـ كما يذكر الترمذي ـ ان رجلا من الانصار كان يشهد حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فلا يحفظه ، فيسأل ابا هريرة ، فيحدثه ، ثم شكى قلة حفظه الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : استعن على حفظك بيمينك أي بالكتابة .

وروي عن رافع بن خديج ، كما يذكر في كتاب : « تقييد العلم » انه قال : ـ قلنا يا رسول الله ، انا نسمع

منك اشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « أكتبوا ولا حرج » •

على انه قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، انه كتب كتاب الصدقات والديات ، والفرائض ، والسنن ، لعمر بن حزم وغيره ، كما يروي ذلك صاحب ــ كتاب « جامع بيان العلم وفضله » •

هذا بعض ما كان من الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم • وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله ، صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق الاعلى •

ففي مسند الامام احمد عن ابي عثمان النهدي قال ، كنا مع عتبة بن فرقد ، فكتب اليه عمر بأشياء يحدثه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما كتب اليه :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ــ « لا يلبس الحرير في الدنيا الا من ليس له في الآخرة منه شيء الا هكذا » •

وقال باصبعيه السبابة والوسطى : قال ابو عثمان : فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة •

ولقد كان الصحابة ينقل بعضهم عن بعض ، فعروة بن الزبير رضي الله عنه ، ينقل عن خالته ، السيدة عائشة ، رضوان الله عليها ، فتقول له : يا بني بلغني انك تكتب عني الحديث ، ثم تعود فتكتبه •

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم اعود فأسمعه على غيره •

فقالت : هل تسمع في المعنى خلافا ؟

قال : لا

قالت : لا بأس بذلك •

وبشير بن نهيك يكتب عن ابي هريرة : ويجيزه ابو هريرة بالرواية عنه •

يقول بشير ــ كما يذكر كتاب : « السنة قبل التدوين » نقلا عن كتاب : « المحدث الفاضل » وغيره ــ أتيت ابا هريرة بكتابي الذي كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟

قال : نعم •

وكان لابن عباس ، رضي الله عنه ألواح يكتب فيها عن الصحابة : مثل ابي رافع صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم •

بل لقد وصل الامر بأنس رضي الله عنه الذي لازم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ملازمة تكاد تكون تامة طيلة عشر سنوات انه كان يملي الحديث على جموع من الطالبين ، فاذا كثر عليه الناس ، واحتاجوا الى صحف يكتبون فيها ، جاء اليهم بها من عنده فألقاها اليهم ، ثم قال: هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرضتها عليه •

وكان يقول ، رضي الله عنه ، لبنيه : يا بني قيدوا العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتراسلون في الاحاديث : يستفسرون ويتذاكرون ، فمعاوية بن ابي سفيان ، رضي الله عنه ،يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه ، عدة مرات ، يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله،صلى الله عليه وسلم ، مثلا ، يقول في ختام كل صلاة :

« اللهم لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

ويجيبه مرة اخرى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال .

ويكتب زياد بن ابي سفيان الى السيدة عائشة رضوان الله عليها ، يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويذكر لها فتوى ابن عباس رضي الله عنه . فتكتب له بما كان ، صلى الله عليه وسلم ، يفعله في الحج .

ويصف المرحوم الاستاذ السباعي بعض الجهود التي قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول في نهاية حديثه عن تلك الجهود :

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة ان يتفرقوا في الامصار ، واحتاج الناس الى الصحابة ، وخاصة صغارهم ،

بعد ان اخذ الكبار يتناقصون يوما بعد يوم،فاجتهد صغار الصحابة بجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم•

كما كان يرحل بعضهم الى بعض من اجل طلب الحديث فقد أخرج البخاري في الادب المفرد ، واحمد ، والطبراني ، والبيهقي ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال • بلغني حديث عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم اسمعه ، فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلي ، ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام ، فاذا هو عبد الله بن انيس الانصاري ، فأتيته ، فقلت له :

حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في المظالم لم اسمعه ، فخشيت ان اموت ، او تموت قبل ان اسمعه •

فقال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول « يحشر الناس غرلا بهما » •

قلنا : وما لهم ؟

قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الديان لا ينبغي لأحد من اهل النار ان يدخل النار واحد من اهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصها منه •

ولا ينبغي لأحد من اهل الجنة ان يدخل الجنة واحد

من اهل النار يطلبه بمظلمة حتى اقتصها منه حتى اللطمة •

قلنا : كيف ؟ وانما نأتي الله عراة غرلا بهما ؟

قال بالحسنات والسيئات •

وأخرج البيهقي وابن عبد البر عن عطاء بن ابي رباح ان ابا ايوب الانصاري رحل الى عتبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يبق احد سمعه منه غيره ، فلما قدم الى منزل مسلمة بن مخلد الانصاري — وهو امير مصر — فخرج اليه فعانقه ، ثم قال :

ما جاء بك يا ابا ايوب ؟

قال : حديث سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في ستر المؤمن •

فقال : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : —

« من ستر مؤمنا في الدنيا على كربته ، ستره الله يوم القيامة ».

ثم انصرف ابو ايوب الى راحلته. فركبها راجعاً الى المدينة ، فما ادركته جائزة مسلمة الا بعريش مصر » إ هـ•

ولقد وقر في اذهان الناس ، بصورة راسخة ان السنة لم تدون الا في القرن الثاني ، ومن اجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أطلنا في نقل بعض النصوص التي تثبت الحقيقة ، وهي ان السنة دونت في القرن الاول : في عهد

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الصحابة الاجلاء.

ومن اجل زيادة الامر وضوحا ، ومن اجل تأكيد الحقيقة في الاذهان : ننقل هنا ايضا رأي الاستاذ الجليل ، السيد سليمان الندوي ، كبير علماء مسلمي القارة الهندية، هذا العصر : ننقله عن كتابه النفيس : « الرسالة المحمدية » وهو محاضرات ألقاها في جامعة مدراس . يقول :

واني اكشف القناع ، لاول مرة في ناديكم هذا ، بأن من زعم ان الاحاديث النبوية لم تدون الى مائة سنة او تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه .

والسبب في هذا الخطأ ظنهم ان اول كتاب في الحديث النبوي : « كتاب الموطأ » لمالك بن انس ، واول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن اسحاق،وهذان الامامان الجليلان كانا معاصرين ، وتوفي الاول سنة ١٧٩ هـ. والثاني سنة ١٥١ هـ. فاعتبروا العقود الاولى من القرن الثاني بداية تدوين الاخبار والسير .

والامر ليس كذلك . فان بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان امير المؤمنين عمر بن العزيز المتوفي سنة ١٠١ عالما جليلا ،ولي امارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ وقد عهد الى القاضي ، ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم — الذي كان اماما في الحديث والخبر — ان يبدأ في تدوين سنن النبي صلى الله عليه وسلم واخباره ، لانه خاف على العلم ان يرفع شيئا فشيئا .

وخاف دوس العلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا في تعليقات البخاري ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمي • فقام بذلك ابو بكر بن حزم ، وكتبت الاحاديث والاخبار والسنن في القراطيس ، وارسلت الى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت في الصحف والكتب ، وبعث بها الى البلاد الاسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر ص ١٣٨ طبع بمصر) •

فأبو بكر هذا الذي علمتم مكانته من العلم والفضل• وكان قاضيا بالمدينة المنورة ، هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ، ولان خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات ام المؤمنين عائشة ، وكان ماروته خالته عمرة عن ام المؤمنين عائشة محفوظا عنده • فأوعز اليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر في كتابه اليه •

ويتابع السيد سليمان الندوي حديثه فيقول :

وامر صلى الله عليه وسلم ، فكتبت احكام الزكاة ، وما تجب فيه ، ومقادير ذلك ، فكتبت مشروحة مفصلة في صفحتين ، وبعث بصورة ذلك الى امراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة في بيت ابي بكر الصديق ، وابي بكر بن عمرو بن حزم • (الدار قطني في كتاب الزكاة ٢٠٩) وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها احكام الزكاة

وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة •

وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرووها عنه (العلل للترمذي ص ٦٩١) •

وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمي ٦٩) وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده : عمرو بن شعيب « سنن الترمذي » (ص ٦١ ، ١١٣) •

كانوا يضعفون عمرو بن شعيب ، لأنه يروي من الصحيفة ، وكان ينبغي له ان يروي من حفظه •

وجمع وهب التابعي روايات جابر بن عبد الله، وكانت عند اسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر : ٣١٦) •

وروى سليمان بن سمرة بن جندب • انه كان عند ابيه صحيفة فيها احاديث • وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) •

وجمع همام بن منبه روايات ابي هريرة ، وهو اكثر الصحابة رواية ، واوعاهم حفظا لاحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد اوردها الامام احمد بن حنبل في الجزء الثاني من مسنده (ص ٣١٢ ــ ٣١٨ الطبعة الاولى)•

وكذلك بشير بن نهيك : كتب مروياته عن ابي هريرة في كتاب وقرأه عليه •

(كتاب العلل للترمذي ص ٦٩١ • والدارمي ص ٦٨

والسنن الكبرى للبيهقي ١٠ : ٢٨٠)

وذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري : ان ابا هريرة جاء برجل الى بيته واراه اوراقا وقال : هذه رواياتي . وقال الذي روى ذلك : انها لم تكن مكتوبة بيده (فتح الباري ١ : ١٨٤ — ١٨٥) .

وكان انس بن مالك — وهو معروف بكثرة الرواية — يقول لاولاده يا بني اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمي ص ٦٨) .

وكان تلميذه « ابان » يكتب رواياته بين يديه . (الدارمي ص ٦٨) .

وروي عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملي ابا رافع خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كان صلى الله عليه وسلم ، يفعل او يقول (طبقات ابن سعد ٢|٢ : ١٢٣) .

والواقدي وهو من متقدمي المصنفين في السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي ارسله رسول الله صلى الله عليه وسلم،الى المنذر بن ساوي سيد عمان مع كتب اخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) .

وفي تاريخ الطبري : ان عروة بن الزبير كتب جميع ما كان في غزوة بدر مفصلا الى عبد الملك الخليفة الاموي (الطبري ١٢٨٥) .

ويقول سعيد بن جبير التابعي : كنت اكتب على الاقتاب

ما اسمعه في الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فاذا اصبحت كتبته واضحا . (الدارمي ص ٦٩) .

وكان اصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمي ٦٩) .

وكان نافع ــ وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة ــ يملي على الناس (الدارمي ص ٦٩) .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود انه اخرج كتابا وقال : وأيم الله ، هذا ما كتبته يد ابن مسعـــود . (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧) .

ونتابع الحديث في الموضوع على الرغم من ان الامر اصبح واضحا فنضيف الى ما سبق .

أن مروان قد خطب في الناس فذكر مكة وحرمتها ، فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس .

والمدينة حرم حرمها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وهو مكتوب عندنا في أديم خولافي ان شئت أن نقرئكه فعلنـــا .

فناداه مروان أجل قد بلغنا ذلك . (مسند الامام احمد ابن حنبل ٤ : ١٤١) .

وارسل الضحاك بن قيس كتابا الى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة .

فكتب اليه يقول : كان يقرأ « هل أتاك » (صحيح مسلم) •

وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن فرقد كتابا ذكر فيه • أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) •

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا فسألته : ما هذا ؟ فقال : هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس في ذلك بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم احد » •

ولما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها اعطاه احكاما مكتوبة في الفرائض والصدقات والديات « كنز العمال ٣ : ١٨٦ » •

وتلقى عبد الله بن حكيم كتابا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبراني ص ٢١٧) •

ولما اراد وائل بن حجر ان يرجع الى بلاده حضرموت ناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتابا فيه احكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني ص ٢٤٢) •

ولما وجه امير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان كان عند احد منهم سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في نصيب المرأة

من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان فقال :

نعم عندنا كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبين فيه ذلك (الدار قطني ٢ : ٤٨٥) (١) •

وقد بلغ عدد الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ـ عندما حج حجة الوداع ـ مائة الف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة اسماؤهم واحوالهم في كتب التاريخ التي افردت لتدوين احوالهم خاصة •

وان التاريخ لم يهتم بتدوين احوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم الا لأن كل واحد منهم حفظ شيئا من اقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وافعاله وتصرفاته وهديه وسيرته •

لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقي فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة اربعين ، وبقي بعد ذلك من الصحابة ، الذين كانوا احداثا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، عدد غير قليل • فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة احد ، وانطفأ كل سراج اوقد بنور النبوة •

واليكم اسماء آخر من ما ت من الصحابة ، والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم •

---

(١) انظر: «السنة قبل التدوين» والسنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، ورجال الفكر والدعوة •

آخر الصحابة موتاً	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ – أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ – عبدالله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ – عبدالله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ – السائب بن يزيد	المدينة	٩١
٥ – أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وانس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقي من الصحابة كان الخادم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، استمر في خدمته عشر سنوات متوالية .

ومعظم هذه الثروة الحديثية كما يقول الاستاذ الجليل ابو الحسن الندوي – قد كتب ودون بأقلام رواة في العصر الاول ، وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا في العصر النبوي وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم ، على عشرة آلاف حديث ، اذا جمعت صحف ومجاميع أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلي وابن عباس رضي الله عنهم ، فيمكن ان يقال : أن ما ثبت من الاحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون في عصر النبوة وفي عصر الصحابة قبل ان يدون الموطأ والصحاح ، بكثير .

جمعت السنة اذن ــ جميعها تقريبا ــ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصحابة •

جمعت دون ترتيب ولا تنسيق •

جمعت متفرقة متناثرة،يكتب هذا الحديث والحديثين، ويكتب الآخر المائة والمائتين ، ويزيد الثالث عن ذلك ،ويملي الرابع من حفظه على الآخرين ، وهكذا ، وفي ذلك لم يكن لأحد اهتمام بالتنضيد او التنسيق •

يقول الاستاذ العالم الورع المتثبت ابو الحسن الندوي في كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلي :

واذا جمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتوت عليه من الاحاديث ، كونت العدد الاكبر من الاحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث •

وهكذا يتحقق ان المجموع الكبير الأكبر من الاحاديث سبق تدوينه وتسجيله ــ من غير نظام وترتيب ــ في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عصر الصحابة رضي اللهعنهم •

صلى الله عليه وسلم ، وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم •

ويتحدث الاستاذ ابو الحسن الندوي عن الوهم الشائع بين الناس من ان السنة لم تدون الا في القرن الثالث ، ويعلل هذا الوهم تعليلا منطقيا فيقول :

وقد شاع في الناس ــ حتى المثقفين والمؤلفين ــ أن الحديث لم يكتب ولم يسجل الا في القرن الثالث الهجري ،

واحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون في القرن الثاني.

وما نشأ ذلك الغلط الا عن طريقتين :

الاولى : ان عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدوني الحديث في القرن الثاني ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التي كتبت في القرن الاول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة .

الثانية : ان المحدثين يذكرون عدد الاحاديث الضخم الهائل الذي لا يتصور ان يكون قد جاء في هذه المجاميع الصغيرة التي كتبت من القرن الاول ، مع ان عدد الاحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا .

وقد نبه على ذلك العلامة ، مناظر احسن الكيلاني رئيس القسم الديني سابقا في الجامعة العثمانية بحيدر آباد في كتابه العظيم : « تدوين الحديث » يقول رحمه الله :

وقد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الاحاديث المروية فيقال:ان احمد بن حنبل كان يحفظ اكثر من سبعمائة الف حديث .

وكذلك يقال عن ابي زرعة .

ويروى عن الامام البخاري انه كان يحفظ مائتي الف من الاحاديث الضعيفة ، ومائة الف من الاحاديث الصحيحة.

ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابي من ثلاثمائة الف حديث . ولا يعرف كثير من المتعلمين ـ فضلا عن

العامة ــ ان الذي يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التي عني بها المحدثون •

فحديث « انما الاعمال بالنيات » مثلا يروى، من سبعمائة طريق •

فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقي عدد قليل من الاحاديث •

فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيد الاحاديث التي رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين •

وأحاديث مسلم يبلغ عددها الى أربعة آلاف حديث •

وهكذا لا يبلغ عدد الاحاديث المروية في كتب الصحاح الستة ، ومسند احمد ، وكتب اخرى ، خمسين ألف حديث، منها الصحيح ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ، ومنها المتكلم فيه •

وقد صرح الحاكم ابو عبد الله ــ الذي يعد من المتسامحين المتوسعين ان الاحاديث التي في الدرجة الاولى لا تبلغ عشرة آلاف « توجيه النظر ص ٩٣ » •

ويقول الاستاذ :

ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين انشط واقوى •

وكان ممن سبق اليها من الرجال هذا القرن :

ابن شهاب الزهري ــ مات عام ١٣٤ هـ

وابن جريح المكي ــ مات عام ١٥٠ هـ

وابن اسحق ـ مات عام ١٥١ هـ
ومعمر اليمني ـ مات عام ١٥٣ هـ
وسعيد بن ابي عروبة المدني ـ مات عام ١٥٦ هـ
وربيع بن صبيح ـ مات عام ١٦٠ هـ
وسفيان الثوري ـ مات عام ١٦١ هـ
ومالك بن انس ـ مات عام ١٧٩ هـ
والليث بن سعد ـ مات عام ١٧٥ هـ
وابن المبارك ـ مات عام ١٨١ هـ
ثم تتابع الناس (١) .

ليس من همنا في هذا الفصل ان نتابع السنة في تدوينها ، وانما أردنا ان نوضح في هذا الفصل توضيحا شافيا فكرة ان السنة دونت في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وأظن انه قد استبان الآن الامر بما لا يحتاج الى مزيد ، وشكر الله للباحثين الاعلام المتبصرين الذين استندنا اليهم في هذا الحديث .

(١) انظر كتاب : رجال الفكر والدعوة لابي الحسن الندوي

الفصل الثالث

المحدثون في جهادهم

وفي ضوء ما سبق قد يتساءل بعض الناس ؟ هل معنى ذلك أنه لم تحدث محاولات للوضع ، او حدث وضع بالفعل وتزييف ، واختراع في السنة؟ والواقع ان من يزعم ان السنة ـ على مجرى التاريخ قد خلت من الوضع انما ينكر الحقائق الثابتة .

لقد حاول الكثيرون وضع احاديث على لسان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وحاولوا ذلك لأسباب مختلفة منها : ـ

١ ـ أن بعض الناس كذابون بطبيعتهم ، اتخذوا الكذب هواية لا يستقيم امرهم الا على الكذب ، فكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واذا كان من المعروف في جميع الاديان ان بعض الناس يكذب على الله ، فان من الامور التي تحدث ان يكذب بعض الناس على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ وبعض الناس يسيطر عليه مذهب من المذاهب او نزعة من النزعات ، ويتشبع بذلك حتى يملأ عليه أقطاره فيكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تأييدا لمذهبه وتأكيدا لنزعته ، وارضاء لهواه .

٣ ـ وبعض الناس دخل في الاسلام كرها للاسلام : دخله ليتآمر عليه ، دخله ليكون في ظروف اكثر ملاءمة للتآمر عليه : فكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم : افسادا للمبادىء الاسلامية الصحيحة ، وتزييفا لها .

٤ ـ وبعض الناس استباح الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في سبيل موعظة الآخرين وهدايتهم ، ورأى ان غايته التهذيبية تبيح له ركوب هذا المركب الفاسد .

هذه هي كل او اكثر الاسباب التي دعت الى وضع الأحاديث والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن ذلك لم يكن في السنة بدعا من الامر .

فهذه الاسباب في الجملة كانت ولا تزال الاسباب لتزييف التاريخ .

ان التاريخ ـ منذ عرف ـ لم يخل من العوامل التي تحاول وضعه على غير ما كان عليه بالفعل ، وتلوينه على الصورة التي يريد بعض الناس ـ ملوكا او امراء او زعماء على أي وضع كانوا ـ ان يكون عليها .

ولكن تزييفهم للتاريخ لم يمنع من ظهور الحقائق ، وكذبهم على التاريخ لم يمنع من بيان الحق ومعرفة الناس له .

ولقد وضع المؤرخون المحدثون اصولا للنقد ، وعلامات للحوادث المزيفة وقواعد لمعرفة الحقيقة .

ولقد استعانوا في سبيل المعرفة الصحيحة باللغة ، وبالحوادث اليقينية المتواترة،وبالشهود العدول،وبالمقارنات

لقد استعانوا بالنقد الداخلي ، والنقد الخارجي ووصلوا بذلك الى الحقائق التي يطمئنون اليها ، برغم ما يفصل بينهم وبين مكان الاحداث من آلاف الاميال، وبرغم ما يفصل بينهم وبين ازمنة الحوادث من عشرات القرون •

ومع كل ما حاوله المؤرخون من جهد ، ومع كل ما وضعوه من قواعد للوصول الى اليقين فانهم ـ والحق يقال ـ لم يصلوا في كل ذلك الى ما وصل اليه سادتنا المحدثون ، رضوان الله عليهم • وذلك للاسباب التالية :

١ ـ لقد بدأ تسجيل السنة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتم تسجيلها ـ كلها تقريبا ـ في عهد الصحابة رضوان الله عليهم • فكان قرب الزمن ، اذن ، من عوامل صحة السنة •

٢ ـ وسجل اكثرها في المكان نفسه الذي كان فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، او في امكنة قريبة ، نسبيا ، منه •

٣ ـ ولقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، احاديث كانت تحد من الوضع ، في المبدأ على الاقل ، مثل حديث :

«من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده في النار » •

وهذه ملاحظات نذكرها لا لنقول انها حاسمة فيما

يتعلق بأمر صحة ما روي ـ ولقد قدمنا : ان الوضع وجد بالفعل ـ ولكننا نذكرها في مقابلة ما يحاول بعض الناس التهويل به من امر التزييف والوضع •

اما الامور الحاسمة التي تجعلنا نثق في النتائج والثمار التي وصل اليها سلفنا الصالح فيما يتعلق بأمر السنة ، فان في اساسها :

١ ـ ايمان هؤلاء السلف بأنهم في عنايتهم بالسنة : ـ بما صح منها ، وبما وضع فيها ـ انما يجاهدون في سبيل الله •

لقد كانوا مؤمنين ايمانا عميقا ثابتا بأن في عنقهم واجبا دينيا هو ان يخلصوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من كل زيف ، وان ينقوها من الكدورات في اخلاص مخلص، وفي صورة من اليقين لا يفترون في الوصول اليه •

ولقد كانوا يعدون بالالاف ، ويمتازون ـ كما يقول ابو الحسن الندوي ـ بعلو نشاطهم ، وقوة احتمالهم وصبرهم ، وقوة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفا حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الافاق ، ونقبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والاسانيد الصحيحة •

وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرفا عن امة من الامم في التاريخ كله ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن

المحدثين من التجول في البلاد ، والسفر في العالم الأسلامي، من اقصاه الى اقصاه •

فقد روي : ان البخاري صاحب الصحيح ، بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشر من سنه ، وقد زار البلدان الاسلامية : ما بين بخارى ومصر وشيوخها •

وروي عن ابي حاتم الرازي م ٢٧٧ ه قال :

« أول ما رحلت أقمت سبع سنين ، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العدد وخرجت من البحرين الى مصر ، ثم الى الرملة ماشيا،ثم الى طرطوس ولي عشرون سنة » •

وقد سمع محدث الاندلس ابن حيون (م ٣٧٤ ه) الحديث في الاندلس والعراق ، والحجاز واليمن ، وهكذا قطع قارة افريقيا من طنجة الى مصر ، وعبر البحر الاحمر •

ومن المحدثين من سافر في قارة افريقيا وآسيا واوربا في طلب الحديث وهكذا انتظمت رحلته العلمية ثلاث قارات كبرى •

وكان كثير من المحدثين يخرج من الاندلس اقصى الغرب في العالم المتمدن المعروف يومئذ ويبلغ اقصاه في الشرق الى خراسان او بالعكس ، والمطالع في تذكرة الحفاظ للذهبي يدهش لطموح هؤلاء الرجال واحتمالهم المشاق في طلب العلم •

٢ ــ ولقد استعمل ائمتنا النقد الداخلي والنقد

الخارجي ، بل لقد استعملوا ما يمكن ان نسميه المشاركة الوجدانية ، او بعبارة ادق ، استرواح رائحة النبوة ، او استلهام طابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الحديث، او استبصار القلب ، والهام الروح ، واشراق البصيرة ، في المعرفــة :

يقول الربيع بن خيثم :

« ان من الحديث حديثا له ضوء كضوء النهار تعرفه بــه .

وان من الحديث حديثا له ظلمة كظلمــة الليل تعرفــه بهــا (١) » .

وهذه الطريقة تعتبر في العصر الحاضر الاوروبي من ابتداعات القرن العشرين . لقد استعملها أئمتنا ووضعوا لها الاصول ، وبينوا كيفيتها ، ولم يتركوها للأهواء والمشارب، ومن ادق التعبيرات عنها ما يقوله ابن القيم .

سئلت : هل يمكن معرفة الموضوع بضابط ، من غير ان ينظر في سنده ؟

فهذا سؤال عظيم القدر .

وانما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة، واختلطت بدمه ولحمه ، وصار له فيها ملكة ، وصار لــه اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ، ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ،ويخبر

---

(١) الحاكم : في معرفة علوم الحديث ص ٢٦

عنه ويدعو اليه ، ويحبه ويكرهه ، ويشرعه للأمة ، بحيث كأنه مخالط للرسول صلى الله عليه وسلم كواحد مــن أصحــابه •

ومثل هذا يعرف من احوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهديه وكلامه ، وما يجوز ان يخبر عنه ، وما لا يجوز ــ ما لا يعرفه غيره •

وهذا شأن كل متبع مع متبوعه،فللأخص به،الحريص على تتبع اقواله وافعاله في العلم بها ، والتمييز بين ما يصح ان ينسب اليه وما لا يصح ــ ما ليس لمن لايكون كذلك•

وهذا شأن المقلدين مع أئمتهم : يعرفون من اقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم واساليبهم ومشاربهم ما لا يعرفه غيرهم ، وفي هذه الطريقة ايضا يقول ابن دقيق العيد :

« وكثيرا ما يحكمون بذلك (أي بالوضع) باعتبار يرجع الى المروي وألفاظ الحديث ، وحاصله انها حصلت لهم بكثرة محاولة الفاظ النبي صلى الله عليه وسلم هيئــة نفسانية وملكة يعرفون بها ما يجوز ان يكون من الفاظه وما لا يجوز » •

ويقول ابن الجوزي :

الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه في الغالب •

٣ ــ وانه لمن المعروف ان عناية سلفنا الصالح لم تكن موجهة الى جمع الحديث وتدوينه فحسب ، وانما تعدت

ذلك ـ كما يقول الاستاذ الجليل ابو الحسن الندوي ـ الى الوسائط التي وقعت في رواية الحديث ـ وهم الرواة الذين رووا هذه الاحاديث •

فعنوا بمعرفتهم ومعرفة اسمائهم واسماء آبائهم ، وحوادث حياتهم واخلاقهم، ومكانتهم في الامانة، والصدق، والحفظ •

وهكذا اصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم « ورفعنا لك ذكرك » اصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين ، والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول واستحقوا الحياة والاشتهار ، واصابهم فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة فحيوا وظهروا واحتفظ التاريخ بأسمائهم واحوالهم ، ورآه حقا على نفسه ، وهكذا ظهر علم أسماء الرجال في عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الامة التي لا تشاركها فيها امة من الامم ، قال الدكتور « اسبرنجر »
في مقدمته الانجليزية على كتاب الاصابة في احوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني ما ترجمته •

« لم تعرف امة في التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الارض ، وفقت لاختراع فن من اسماء الرجال الذي نستطيع بفضله ان نقف على ترجمة خمسمائة الف (نصف مليون) من الرجال » •

ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ،

بل التزموا الصدق والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدل على قوتهم وضعفهم ، واحتياطهم وتساهلهم ، وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم ، وجمعوا كل ماقاله معاصروهم فيهم،ولميداروا ولم يجاملوا فيذلك، ولم يهابوا احدا ، ولو كان بعضهم اميرا مهاباً او شيخا وقورا .

وقد روى التاريخ في ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء الناقدين وعلمهم بقوله تعالى :

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين » وتدقيقهم .

قال ابو داود : كان ابو وكيع على بيت المال ، فكان وكيع ، (م ١٩٧) اذا روى عنه قرنه بآخر .

وقد ترك معاذ بن معاذ العنبري (م ١٩٦ هـ) رواية السعودي ، لأنه رآه يطالع الكتاب ، يعني قد تغير حفظه . وقد قدم اليه عشرة آلاف دينار ، وطلب منه ان يسكت عن فلان فلا يتكلم فيه بجرح ولا تعديل ، فأبى ورفض هذا الحال العظيم ، وقال : « لا اكتم الحق » .

وهذا قليل من كثير جدا يدل على امانة علماء الحديث والرجال ، وتدقيقهم في موضوعهم ، وتحريهم الحق والعدل في شهاداتهم ، فهل يوجد في تاريخ العلم نظير لهذه الامانة والتدقيق ؟

★ ★

وما من شك في ان سلفنا الصالح بدأ بالاهتمام بالاسناد :

أي بالاهتمام بهؤلاء الذين رووا الحديث واحدا عن واحد حتى وصلوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، او الى احد الصحابة رضوان الله عليهم .

ولقد اهتموا بالاسناد الى درجة ان جعلوه من الدين يقول الامام الزهري :

« الاسناد من الدين » .

لقد بحثوا عن هؤلاء الذين جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريقهم :

لقد بحثوا عن ميلادهم ، وعن وفاتهم ، وعن اخلاقهم، وعن غفلتهم وسهوهم ، او يقظتهم وصحوهم وعن ذاكرتهم وضبطهم ، لقد بحثوا عن كل ما يتصل بهم في الفاظهم التي ينطقون بها ، وفي سلوكهم الذي يسيرون عليه ، وفي سمتهم من ناحية الوقار والخفة ، وفي أهوائهم ومشاربهم ، وفي نزعاتهم ، وفي ميولهم على وجه العموم .

لقد اخترع المسلمون علم تشريح كامل ، وضعوا به على مائدة المعرفة ما يقرب من نصف مليون من البشر .

لقد اخترعوا علما لم يخترعه سابقوهم ، حتى بالنسبة لكتبهم المقدسة ولم يصل اليه لاحقوهم حتى في العصر الحديث .

علما يقول عنه المستشرق الالماني « اسبرنجـر » في تصديره لكتاب الاصابة لابن حجر حينما كان في كلكتـا ١٨٥٣ ـ ١٨٦٤ : ـ الكلمة التي سبق ان ذكرناها ،والتي تعبر عن الحقيقة الواقعة .

ولقد قيل مرة لابن المبارك : ـ « هذه الاحاديث المصنوعة ؟ » .

فقال « يعيش لها الجهابذة » .

هؤلاء الجهابذة قاموا بما عليهم خير قيام .

يتحدث صاحب كتاب « تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل » عن بعض ما قام به هؤلاء الجهابذة فيقول :

« التمييز بين الرواة » قال ابو محمد :

فلما لم نجد سبيلا الى معرفة شيء من معاني كتـاب الله ، ولا من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة النقل والرواية:وجب ان نميز بين عدول الناقلة والرواة وثقاتهم واهل الحفظ والتثبيت والاتقان منهم ، وبين اهـل الغفلة والتشتت وسوء الحفظ والكذب،واختراع الاحاديث الكاذبـة .

ولما كان الدين هو الذي جاءنا عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بنقل الرواة ، حق علينـا معرفتهم ، ووجب الفحص عن الناقلة والبحث عن احوالهم ، واثبات الذين عرفناهم بشرائط العدالة والتثبت في الرواية مما يقتضي حكم العدالة في نقل الحديث بأن يكونوا امناء

في انفسهم،علماء بدينهم،أهل ورع وتقوى وحفظ للحديث واتقان به وتثبت فيه .

وأن يكونوا اهل تمييز وتحصيل ، لا يشوبهم كثير من الغفلات ، ولا تغلب عليهم الاوهام فيما قد حفظوه ووعوه ولا يشبه عليهم بالاغلوطات .

وان يعزل عنهم الذين جرحهم اهل العدالة ، وكشفوا لنا عن عوراتهم في كذبهم ، وما كان يعتريهم من غالب الغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط والسهو والاشتباه ، ليعرف به ادلة هذا الدين (واعلامه ـ ١) وامناء الله في ارضه على كتابه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم هؤلاء أهل العدالة ، فيتمسك بالذي رووه ويعتمد عليه ، وليعرف اهل الكذب تخرصا واهل الكذب وهما ، واهل الغفلة والنسيان والغلط ورداءة الحفظ ، فيكشف عن حالهم وينبىء عن الوجوه التي كان مجرى روايتهم عليها ، ان كذبا فكذب ، وان وهما فوهم ، وان غلطا فغلط .

«طبقات الرواة» : ثم احتيج الى تبيين طبقاتهم ومقادير حالاتهم ، وتباين درجاتهم ، ليعرف من كان منهم في منزلة الانتقاد والجهبذة والتنقير والبحث عن الرجال والمعرفة بهم ـ وهؤلاء هم اهل التزكية والتعديل والجرح .

ويعرف من كان منهم عدلا في نفسه من اهل التثبيت في الحديث والحفظ له والاتقان فيه ـ فهؤلاء هم اهل العدالة .

ومنهم الصدوق في روايته ، الورع في دينه ، المتثبت الذي يهم احيانا وقد قبله الجهابذة النقاد ــ فهذا يحتج بحديثه ايضا •

ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط ــ فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب • ولا يحتج بحديثه في الحلال والحرام •

ومنهم من قد ألصق نفسه بهم ودلسها بينهم ــ ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب ، فهذا يترك حديثه وتطرح روايته ويسقط ولا يشتغل به » اهـ•

ولقد كان هؤلاء الجهابذة في سبيل الدين يبدون آراءهم في أمس الناس بهم ، نصيحة للمسلمين ، وتقوى منهم ، فزيد بن ابي أنيسة ــ كما يذكر صحيح مسلم بشرح النووي ــ

يقول : « لا تأخذوا عن اخي » •

ويسأل علي بن المديني عن ابيه فيقول :

« سلوا عنه غيري » •

فيعيدون السؤال من جديد ، فيطرق ، ثم يرفع رأسه ، ويقول : « هو الدين ، انه ضعيف » •

وكان امر وكيع بن الجراح طريفا ، فقد كان ابوه رجلا صالحا ، لامأخذ عليه ، غير انه كان على بيت المال ، ومن

اجل وظيفته هذه كان ابنه ـ اذا روى عنه ـ يقرن معه آخر •

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يعنون بالاسناد عناية فائقة ، حتى لقد قال سفيان الثوري رضي الله عنه : « الاسناد سلاح المؤمن ، فاذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل (١) »

ويفسر الدكتور ناصر الدين الاسد العناية بالاسناد تفسيرا صادقا فيقول ص ٢٢٦ من كتابه النفيس : مصادر الشعر الجاهلي :

يبدو لنا ان مرد التزام الاسناد المتصل في رواية الحديث الى امرين ، امر داخلي ، وآخر خارجي •

اما الداخلي فمبعثه من نفس الراوي ، ومصدره شعوره بالتحرج الديني ، وذلك انه ينقل كلاما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال في حديثه المشهور :

« من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » •

وفي الاسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن الى ان غيره من شيوخه وشيوخ شيوخه ، ثم التابعين والصحابة ، يشتركون معه في تحمل تبعة هذا الحديث ونقله ، وانه لا

(١) انظر كتاب السنة قبل التدوين ص ٢٢٣

يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وان تبعته لا تعدو النقل الامين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت •

واما الامر الخارجي فمرجعه الى سامعي الحديث من المحدث ، وذلك ان الحديث يتضمن جزءا كبيرا من السنة، او هو السنة كلها ، وهو من اجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الاسلامي ، بل انه هو المصدر الثاني الذي يلي في القيمة كتاب الله ، فذلك كان ما رأيت منهم من التدقيق والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة في نفوس السامعين ، ويوحى اليهم بالثقة في حديث المحدث ـ ان يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواة المحدثين، كلهم يشهد أنه سمعه ممن قبله حتى يصل الاسناد الى الصحابة فالرسول •

مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٨ : ٢٥٩ ا هـ•

ودخل في هذا الباب ـ باب الاسناد ـ نقد الرواة ، وتصنيفهم الى فئات يأخذون من بعضها ويتوقفون عن البعض ، ويعلنون على ملأ من الناس كذب البعض ، وكان لهم في هذا المجال شعور مرهف ، او شعور مترف اذا امكن هذا التعبير •

يقول الامام مالك رضي الله عنه :

لا يؤخذ العلم عن اربعة :

١ ـ رجل معلن بالسنة ، وان كان اروى الناس •

٢ ـ رجل يكذب في احاديث الناس ، وان كنت لا

أتهمه ان يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم •

٣ ــ وصاحب هوى يدعو الناس الى هواه •

٤ ــ وشيخ له فضل وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحدث به •

ولقد كان يحيى بن سعيد القطان رحمه الله يترك حديث الكثير ممن يظهر بعض الناس بهم الخير ، فقيل له :

« اما تخشى ان يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ؟ »

فقال : لأن يكون هؤلاء خصمي احب الي من ان يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لم لم تذب الكذب عن حديثي » •

لقد اتفق المحدثون على ألا يأخذوا الحديث عن :

١ ــ الكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل لقد اختلفوا في كفر هؤلاء ، بل لقد اختلفوا في قبول الله لتوبتهم ، ويكفي ان يعرف الكذب من احدهم مرة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسقط ذلك جميع احاديثه •

على ان الكذب على الناس كان في ترك حديث الكذاب حتى ولو كان يتحرج من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ذلك الامام مالك ، رضي الله عنه فيما سبق •

ولأئمتنا في تعقب الكذابين طرائف :

يقول الاستاذ السباعي في كتابه النفيس : « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » :

مبينا بعض علامات الوضع في السند ، ومنها ان يروى الراوي عن شيخ لم يثبت لقياه له ، او ولد بعد وفاته ، او لم يدخل المكان الذي ادعى سماعه فيه ، كما ادعى مأمون بن احمد الهروي انه سمع من هشام بن عمار .

فسأله الحافظ بن حبان :

متى دخلت الشام ؟

قال : سنة خمسين ومائتين .

قال ابن حبان : فان هشاما الذي تروي عنه مات سنة خمس واربعين ومائتين .

وكما حدث عبد الله بن اسحاق الكرماني عن محمد بن ابي يعقوب ، فقيل له : مات محمد قبل ان تولد بتسع سنين

وكما حدث محمد بن حاتم المكي ، عن عبد بن حميد فقال الحكم ابو عبد الله:هذا الشيخ سمع من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة .

وفي مقدمة مسلم : ان المعلي بن عرفان قال :

حدثنا ابو وائل ، قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين ، وقال ابو نعيم يعني الفضل بن دكين ، حاكيه عن المعلى ، اتراه بعث بعد الموت ؟ وذلك لان ابن مسعود توفي سنة

اثنتين او ثلاث وثلاثين ، قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين .

ولا شك ان العمدة في مثل هذه الحالة على التاريخ ، تاريخ مواليد الرواة ، واقامتهم ورحلاتهم ، وشيوخهم ، ووفاتهم ، ولذلك كان علم الطبقات قائما بذاته علما لايستغنى عنه نقاد الحديث .

قال حفص بن غياث القاضي : اذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين ، يعني : سنه ، وسن من كتب عنه .

وقال سفيان الثوري : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ ا ه.

ومن اعجب ما روي في ذلك ، هو ما يرويه ابو احمد ابن عدي الحافظ عن الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح ، قال :

« سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : ان محمد بن اسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به اصحاب الحديث ، فاجتمعوا وارادوا امتحان حفظه .

فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها واسانيدها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها الى عشر انفس لكل رجل عشرة احاديث وامروهم اذا حضروا المجلس ان يلقوا ذلك على البخاري ، واخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من اهل خراسان وغيرهم من البغداديين .

فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث فقال البخاري :

« لا اعرفه » .

فما زال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول :

« لا اعرفه » .

وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون :

« فهم الرجل »

ومن كان لا يدري القصة ، يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ .

ثم انتدب رجل من العشرة ايضا فسأله عن حديث من تلك الاحاديث المقلوبة .

فقال :

« لا اعرفه » .

فسأله عن آخر فقال :

« لا اعرفه » .

فما زال يلقي عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول :

« لا اعرفه » .

ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا

كلهم من القاء تلك الاحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على ان يقول :

« لا أعرفه » .

فلما علم انهم قد فرغوا التفت الى الاول فقال : أما حديثك الاول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى اتى على تمام العشرة ، فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه ، وفعل بالاخرين مثل ذلك .

فأقر الناس له بالحفظ ، واذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ بن حجر بعدما حكى هذه القصة قلت : « هنا يخضع للبخاري ، فما العجب من رده الخطأ الى الصواب ، فانه كان حافظا ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة » .

ونختم هذا الفصل بقول الاستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني : « لما ارادت الامم الاخرى من غير المسلمين ان تجمع في اطوار نهضتها اقوال رجالها وروايتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون امة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا احوال رواة تلك الاخبار ولا اسماءهم ، ولا تواريخ ولادتهم .

فاكتفوا بأن اصطفوا من اخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ، ويلائم بيئتهم ، وينطبق على مقاييسهم •

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب • وعلى هذا المنهج السقيم صنفت اكثر الكتب الادبية مما يتعلق بالامم الخوالي وشئونها والاقوام القديمة واخبارها ، والاديان السالفة ومذاهبها ورجالها •

اما المسلمون فقد جعلوا لرواية الاخبار والسير قواعد محكمة يرجعون اليها،واصولا متقنة يتمسكون بها•

أولها : واعلاها الا تروى واقعة من الوقائع الا عن الذي شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل خبرها عن الذي شهدها ، ثم تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عمن شهد،وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها الى زمن وقوعها والتثبت عن امانة هؤلاء الرواة ، وفقههم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه •

واذا كانوا على خلاف ذلك ، وجب تبينه ايضا •

وهذه المهمة من اشق الامور ، ومع ذلك فان مئات من المحدثين تفرغوا لها ، ووقفوا اعمارهم على تحري ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لاجله البلاد ، ورحلوا بين

الاقطار ، باحثين دارسين لاحوال الرواة ، وكانوا يلقـون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا احوالهم .

واذا اطمأنوا الى سيرة فريق منهم سألوهم عمـا يعرفونه من احوال الطبقة التي كانت قبلهم .

وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الاسلامية اطلق عليه فيما بعد عنوان (اسمـاء الرجال) فتيسر لمن اتى بعدهم ان يقفوا على اقدار مئـات الالوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم .

* * *

الفصل الرابع

الوضاعون في العصر الحاضر

يقول الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

والفاسق هو الذي لا تتوافر فيه شروط العدالة ، ولقد وضع أئمتنا شروطا للعدالة ، نذكر منها ان :

من شرط العدل : ان يتوافر فيه الصدق بمعناه الاعم الاشمل الذي يدخل فيه : عدم تزييف النص بزيادة او نقصان ، والذي يدخل فيه اولا ، وبالذات عدم الكذب في الرواية ، وعدم الكذب في الحديث العادي •

ولا نريد هنا ان نستقصي ما قيل في العدالة ، وانما نريد ان ننقل بعض نصوص لنرى ، فيما بعد ، تطبيقها على بعض المؤلفين الحديثين •

اننا نتبين دقة اسلافنا الدقيقة مما قاله الشعبي واقسم عليه ، وله مغزاه العميق في بيان مدى ما كان عليه اسلافنا ، رضي الله عنهم ، من تحر للصواب ، يقول الشعبي :

« والله لو اصبت تسعا وتسعين مرة ، واخطأت مرة ، لعدوا علي تلك الواحدة » •

وكان اسلافنا يعتبرون الأعلان عن الكذابين وفضحهم والتشهير بهم من الدين ، يقول عبد الرحمن بن مهدي :
سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن انس عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا :

« انشره فانه دين » .

وعن يحيى بن سعيد قال : سألت سفيان الثوري ، وشعبة ، ومالكا وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتا في الحديث فيأتيني الرجل فيسألني عنه .

قالوا : اخبر عنه ، انه ليس بثبت .
ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .
وهذا الذي يكذب على رسول الله فيتبوأ مقعده من النار : فاسق يجب التشهير به ، وهو فاسق قد سقطت عدالته ، ومن سقطت عدالته فانه يجب على كل مؤمن ان لا يثق في حديثه ولا في رأيه ، او نتائج بحثه . ومن ثبت عليه الكذب او الغش ، او الزيادة في النص ، او النقصان منه ، ليثبت بالزيادة او النقصان رأيا يتفق مع هواه ، ومع نزعاته ، ان كل من يفعل ذلك فقد سقطت عدالته .

على ان من يزيد في النص او ينقص منه ، او يحرف فيه : يتعمد ذلك للحط من انسان او للنيل منه ، فانه ، من الناحية الانسانية : قد نزل الى مرتبة تأنف الانسانية

السليمة منها ، وانحط الى درجة تنفر الفطرة الطاهرة منها.

وبعد هذا نقول : انه نشأ في زمننا هذا طائفة من الناس يزعمون انهم من الباحثين على الاسلوب الحديث ، اسلوب النقد والتمحيص ، والتثبت فيما يزعمون .

وما من شك في ان اسلوب النقد والتمحيص في الحديث وفي رواة الحديث اسلوب البحث العلمي بأدق ما يمكن ان تعبر عنه هذه الكلمة ، انما وجد حقا عند اسلافنا من المحدثين ، انهم هم اصحاب المنهج العلمي الدقيق في كتابة التاريخ ، انهم المخترعون له ، ولا يزالون للان ادق من اتبعه ، وطبقه في صدق ، والمؤرخون المحدثون لم يصلوا بعد الى ما وصل اليه سادتنا المحدثون القدماء من الدقة العلمية .

ولانريد ان نتعجل فنقول :

ان هؤلاء الذين يزعمون في العصر الحاضر انهم قد تمحضوا للبحث العلمي : ليسوا من البحث العلمي في شيء ، ولنتريث قليلا حتى نطبق عليهم مقاييس اسلافنا في العدالة ، لنرى ما اذا كانوا اهلا للثقة ام ليسوا بأهل لها

لقد كان اسلافنا يكتفون بثبوت الكذب مرة واحدة على شخص فيسقطونه من قائمة العدل ، فاذا ثبت مثل ذلك على هؤلاء الكتاب المحدثين فاننا نسقطهم من طبقة العدول، ونضعهم في قائمة الذين وصفهم الله بالفسق ، حين قال فيهم :

« يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

لقد اراد قوم ــ من نقلة البحث العلمي ــ التشكيك في السنة ، بل هدم السنة رأسا ، وهؤلاء تقودهم اهواء مختلفة :

ولننظر الان الى أي مدى يصل بهم تحريف الكلم عن مواضعه وتزييفه والكذب فيه ارضاء لنزعتهم الفاسدة : يقول المرحوم الاستاذ مصطفى السباعي في كتابه النفيس : « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » : متحدثا عن الكذب والتحريف والبهتان الموجود في كتاب « أضواء على السنة » (١) .

١ ــ يقول في الهامش رقم ٣ من صحيفة ١٦٢ من كتابه عن عبد الملك بن عمرورضي الله عنه :

وكان قد اصاب زاملتين من كتب اهل الكتاب وكان يرويها للناس « عن النبي » ثم نسب هذا القول الى ابن حجر في فتح الباري ص ١٦٦ ج١ وعبارته في الفتح ليس فيها « عن النبي » وانما زادها ابو رية ، ونسبها الى الحافظ ابن حجر : ليؤكد للقارىء الشكفي احاديث صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين كان بعضهم يستمع الى مسلمة اهل الكتاب يتحدثون عن اخبار الامم الماضية ،

---

(١) اضواء على السنة للاستاذ محمود ابو رية

فمنهم من كان ينقلها عنهم على انها قصص متعلق بالماضين

ولكن ابا رية كان يتهمهم بأنهم كانوا « ينسبونها » الى النبي، صلى الله عليه وسلم !

ولم يكتف بذلك البهتان حتى نسبه الى الحافظ بن حجر ، وهو لم يقله قط ، ولا يقوله مسلم يعرف ما كان عليه هذا الجيل الفذ في تاريخ الانسانية من صدق اللهجة ، واستقامة الدين ، ووقوف عند حدود الله فيما امر وفيما نهى وهم يعلمون ان الله لعن الكاذبين ومقتهم ، وليس اقر لعيون اعداء الله والاسلام من ان يرموا بما رماهم به ابو رية •

٢ ــ ونقل في ص ١١٥ عن ابن كثير في البداية والنهاية ص ٢٠٦ ج٨ ان عمر ، رضي الله عنه قال لكعب الاحبار :

لتتركن الحديث « عن رسول الله » او لالحقنك بأرض القردة •

وعبارة ابن كثير : لتتركن الحديث عن « الاول » وليس فيها عن رسول الله ولكن امانة ابي رية اجازت له تحريف هذا النص ليثبت ما ادعاه من ان كعبا كان يحدث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وان الصحابة كانوا يأخذون عنه الحديث •

وهذه الفرية دسها المستشرقون اليهود امثال «جولد زيهر » ليدعو تأثير اليهودية في الدين الاسلامي ، فتلقفها منهم المحقق العلمي ابو رية وتبرع لهم باثبات الادلة •

٣ ــ ونقل في ص ١٦٣ عن البداية والنهاية لابن كثير ص : ١٠٦ ج٨ ان عمر رضي الله عنه ، هدد ابا هريرة بترك الحديث او ليلقينه بأرض دوس ــ او بأرض القردة .

وهذه الزيادة « او بأرض القردة » من مفتريات ابي رية على عمر وابن كثير معا . وانما قالها عمر لكعب كما مر يهدده في ترك الحديث عن «الاول» أي الامم الماضية ــ كما نقل ذلك ابن كثير .

٤ ــ نقل ابو رية في عدة مواضع من بحثه عن ابي هريرة نصوصا في تكذيب عمر ، وعثمان وعلي وعائشة وغيرهم لابي هريرة ، ثم نسبها الى ابن قتيبة في « تأويل مختلف الحديث » .

وترجم ابو رية لابن قتيبة في هامش كتابه بأنه كان لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة في قوة البيان والحجة ، وقصده من ذلك تأكيد تضليل القارىء بأن رجلا كابن قتيبة له مكانته بين اهل السنة ، يطعن في ابي هريرة هذا الطعن . دليل على صحة ما يذهب اليه ابو رية من تكذيب ابي هريرة فيما يرويه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

مع ان ابن قتيبة ألف كتابه : «تأويل مختلف الحديث» للرد على من طعن في أئمة الحديث ، منذ عصر الصحابة حتى عصره ، واخبر انهم : هم رؤساء الاعتزال كالنظام وامثاله وآخرين . ثم ساق ابن قتيبة شتائم النظام لابي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابي هريرة وغيرهم من كبار

الصحابة ، ثم كر بالرد عليه وتفنيد ما قاله عن كل واحد من هؤلاء •

فأخذ ابو رية ما قاله النظام في ابي هريرة ونسبه الى ابن قتيبة ، وتعامى عن رد ابن قتيبة على النظام ، وهكذا تكون الامانة « الامانة العلمية » عند هذا المحقق العلمي •

٥ ــ ونقل في ص ١٩٥ عن المرحوم السيد رشيد رضا كلاما عن كعب ووهب بن منبه قال فيه

« ومايدرينا ان كل الروايات ــ او الموقوفة منها ــ ترجع اليها مع ان العبارة : وما يدرينا ان كل (تلك) الروايات الخ فأسقط ابو رية كلمة « تلك » والتي اشار بها السيد رشيد ــ رحمه الله ــ الى مرويات كعب ووهب عن اهل الكتاب ، لتجيء العبارة موهمة بأن كل روايات الصحابة ترجع اليها •• فانظر الى هذا الدس والتلاعب في نقل النصوص لتتفق مع اهوائه واغراضه

هذه امثلة لا مجال للمناقشة فيها تدل على تلاعبه في النصوص التي ينقلها ، ونسبتها الى غير قائليها •

واشهد اني لا اعلم احدا من اشد المستشرقين تعصبا ودسا ، بلغت جرأته في تحريف النصوص والتلاعب فيها كما بلغت جرأة ابي رية ، فماذا نقول في هذا « العلامة المحقق الامين ؟ »

ان مقاييس اسلافنا ، بل مقاييس البحث العلمي

الصحيح في كل عصر ، تسقط عدالة ابي رية ، وتنفيه عن دائرة الباحثين وتسحب الثقة منه كلية .

لا ندري لماذا يحاول بعض المسلمين أن يكونوا ابواقا للمستشرقين ، وللمستشرقين في الشرق صبيان معروفون : إن لهم صبيانا مأجورين وان لهم صبيانا ملاحدة ، وان لهم صبيانا تابعين ومقلدين .

فلنتحدث إذن عن المستشرقين في صورة صريحة : من المعروف ان الاستشراق — في طائفة كبيرة منه — انما هو امتداد للحروب الصليبية .

انالغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الاسلام ، كقوة لها ذاتيتها ، واصالتها ، ومنهجها في الحياة : وهم يستعملون من اجل ذلك كل الوسائل .

انهم يستعملون السلاح في قسوة قاسية ، وفي عنف عنيف حينما يمكنهم استعمال السلاح ، فاذا لم تواتهم الظروف ، استعملوا اسلحة اخرى : منها الاستشراق .

وكثيرا ما يرافق الاستشراق المدفع والدبابة فيالاقطار المستعمرة ، وهدف الاستشراق افساد ما يمكن افساده من الدين ، وبالتالي من الخلق ، وقد وضح — على مر الايام — ان من خصائص الاستشراق انه :

١ — متأثر بالبيئة التي نشأ فيها المستشرقون : ولقد عبر عن هذه الحقيقة ابلغ تعبير احد الغربيين الذين كانوا

يريدون معرفة الحقيقة عن سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فقرأ كتبا عنه بعدة لغات ثم قال :

ان صورة نبي الاسلام صورة فرنسية اذا كانت بقلم الفرنسيين ، وهي ألمانية اذا كانت بقلم الالمانيين ، وهي امريكية اذا كانت بقلم الامريكيين ، وهي.. وهذا فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية

٢ ــ والاستشراق متأثر بالبيئة الدينية ، ومن الطبيعي الواضح انه اذا كان المستشرق مؤمنا بدينه : فانه يكتب عن الاسلام ، مؤمنا بأنه دين مزيف .

ولا ادري كيف يغرب ذلك ــ مع بداهته ــ عن اذهان المسلمين الذين يقرءون الاسلاميات بقلم المستشرقين ، فيولونهم شيئا من الثقة ، او يولونهم كل الثقة حسب درجة استعداد القارىء للتقليد والمتابعة .

٣ ــ ومن المعروف اليقيني ان الاستشراق ــ في اغلبه ــ يسير في ركاب الاستعمار ، او في ركاب الكنيسة .

ان ذلك ظاهر واضح لكل من قرأ تاريخ الاستشراق وصلته بالكنيسة والاستعمار .

ومن اجل ذلك لم يكن غريبا ان يزيف الاستشراق الحقائق . وهو ان لم يزيفها وطنية ، يزيفها تدينا وان لم يزيفها تدينا زيفها وطنية ، فان لم تقو الوطنية وحدها او التدين وحده على حمل الاستشراق على التزييف،تكاتف

التدين والوطنية معا فحملاه ـ متعاونين ـ على التزييف ، فزيف تدينا ووطنية .

انك لا تنتظر من قسيس يعيش في الكنيسة مثـل : أزين بلاسيوس ، حينما يكتب عن الاسلام ، الا مسخا وتشويها كما فعل ذلك حينما كتب كتابه المعروف بالعنوان الذي لايتسم بأدب ولا مجاملة ، وهو «الاسلام المسيحي»

اما القسيس لامنس فقد وهب نفسه لهدم الاسـلام عقيدة ، ولهدم الاسلام تاريخا ، ولهدم الاسلام رجـالا ، ولهدم الاسلام في كل ما يتعلق به .

ان المستشرقين القساوسة : عـدد لا يحصى ، امـا المستشرقون المستشارون في وزارات الخارجية الغربية ، وفي و ارات الداخلية الغربية وفي وزارات الدفاع والحربية وفي وزارات الاعلام والدعاية : فانهم ايضا عدد لا يكاد يحصى .

ماذا تنتظر مـن مستشرق هـو مستشار في وزارة الدعاية ، او في وزارة الحربية ، او في وزارة الخارجية ؟ ان السذاجة مهما وصلت درجتها لايتأتىان توليثقتها لمستشرق يأكل عيشه من سيره في ركاب الاستعمار ، او في ركـاب الكنيسة .

٤ ـ وطـائفة من المستشرقين مستعـدة ان تسير في أي ركاب لانها تسير في ركاب الشيطان .

تلك هي طائفة المستشرقين اليهود .

ان كتاب : بروتوكولات حكماء صهيون ، او كتاب « الخطر الصهيوني » يبين في وضوح ان اليهود قد آلوا على انفسهم ان يفسدوا على الانسانية دينها وخلقها وثقافتها وقد مني الاسلام بطائفة من المستشرقين اليهود على درجة من الخبث والمكر والدهاء ، يعجب لها الشيطان نفسه •

أرأيت الى الذكاء الحاد الخبيث حينما يستعمله صاحبه جاهدا لا يفتر في اغراض شيطانية ، يريد بذلك ان يفسد على المسلمين مثلهم العليا في الفضيلة والخير ، وايمانهم الراسخ في الله وفي رسوله ؟

ان هذا الذكاء الحاد الخبيث الذي اخذ يعمل لا يفتر قد تركز في بضعة افراد من اليهود ـ كأخبث مايكون اليهود ـ على رأسهم جولد زيهر •

ولقد كان جولد زيهر حركة لا تفتر في الفساد والتشويه ، وساعده مال اليهود ودعايتهم،فترجموا ونشروا افكاره في كل مكان ، حتى لقد ترجمت كتبه الخبيثة الى اللغة العربية نفسها ، ونشرت في مختلف الاقطار الاسلامية : تذيع الكذب في صورة البحث العلمي ، وتنشر التشويه في صورة الحقائق الثابتة ، وتدعو الى الشك فيما لا يتأتى فيه الشك ، وأغترت به طائفة من المغرورين ، وظنت ان ابحاثه علمية ، وانه باحث متثبت وعالم يتحرى الحقائق •

والى هؤلاء ، والى كل من يثق بالمستشرقين نذكر

مثالين اثنين ــ من عشرات الامثلة ــ التي تعمد جولدزيهر ، ان يكذب ، وان يحرف الكلم عن مواضعه فيها • وهذان المثالان انما هما نموذج لاعمال كثير من المستشرقين العلمية يقول المرحوم مصطفى السباعي :

« زعم جولد تسيهر ان الزهري اعترف اعترافا خطيرا في قوله الذي رواه عنه معمر :

« ان هؤلاء الامراء اكرهونا على كتابة احاديث » وان ذلك يفهم استعداد الزهري لان يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الامة الاسلامية • قدمنا لك عند الحديث عن صدق الزهري وجرأته ، أنه ابعد الناس عن الرضوخ لاهواء الحاكمين ، وذكرنا لك من الوقائع بينه وبين خلفاء بني امية ، ما تجزم معه بأنه ليس ذلك الرجل المستعد لان يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند المسلمين •

اما هذا النص الذي نقله ففيه تحريف بسيط يقلب المعنى رأسا على عقب ، واصله ، كما في ابن عساكر وابن سعد :

ان الزهري كان يمتنع عن كتابة الاحاديث للناس ــ ويظهر انه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ، ولا يتكلوا على الكتب ، ــ كما ذكرنا من قبل ــ فلما طلب منه هشام واصر عليه ان يملي على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم

وأملى عليه أربعمائة حديث ، خرج من عنده وقال بأعلى صوته : « ايها الناس انا كنا منعنا لم امرا قد بذلنـــاه الان لهؤلاء ، وأن هؤلاء الامراء اكرهونا على كتابة «الاحاديث» فتعالوا حتى احدثكم بها ، فحدثهم بالاربعمائة «الحديث»

هذا هو النص التاريخي لقول الزهري ، وقد رواه الخطيب بلفظ آخر وهو :

كنا نكره كتاب العلم ــ أي كتابته ، حتى اكرهنا عليه هؤلاء الامراء ، فرأينا الا نمنعه احدا من المسلمين (١) •

فانظر كم الفرق بين ان يكون قول الزهري ، كمـــا روى جولدتسيهر « اكرهونا على كتابة احاديث » وبين ان يكون كما رواه المؤرخون: «أكرهونا على كتابة الاحاديث» او كما رواه الخطيب « على كتاب العلم ؟ » ، ثم انظر الى هذه الامانة العلميه حذف « ال » من « الاحاديث » فقلبت الفضيلة رذيلة •• حيث كان النص الاصلي يدل على امانة الزهري واخلاصه في نشر العلم ، فلم يرض ان يبذل للامراء ما منعه عن عامة الناس الا ان يبذله للناس جميعا ، فاذاامانة هذا المستشرق تجعله ينسب للزهري انه وضع للامـــراء احاديث اكرهوه عليها ، فأين هذا من ذاك ؟

اما ما نقله « جولد تسيهر » من قول وكيع عن زياد ابن عبد الله من انه كان مع شرفه في الحديث ــ كذابا •

---

(١) تقييد العلم ص ١٠٧

فهذه احدى تحريفات هذا المستشرق الخبيث ، فأصل العبارة كما وردت في التاريخ للامام البخاري :

وقال ابن عقبة الدوسي عن وكيع : هو (أي زياد بن عبد الله) اشرف من ان يكذب (١) .

فأنت ترى ان وكيعا ينفي عن زياد بن عبد الله الكذب مطلقا ، لا في الحديث فحسب ، وانه اشرف من ان يكذب، فحرفها هذا المستشرق اليهودي الى : انه كان ــ مع شرفه في الحديث ــ كذوبا . وهكذا تكون امانة هذا المستشرق؟

ان المستشرقين واتباعهم من الملاحدة والمأجورين والمقلدين هم الوضاعون في العصر الحاضر .

ولكن الله سبحانه : قد هيأ للسنة تدوينا صحيحا ، وتسجيلا متقنا ، ورجالا كرسوا حياتهم لها ، يدافعون عنها عصرا بعد عصر ، وينشرون اريجها جيلا بعد جيل مذيعين وشارحين ، ناشرين وموضحين .

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

---

(١) القسم الاول ج٢ ص ٣٢٩

فهرس الكتاب